«الفكاهة في شعر المتنبي»

للأستاذ أحمد حسن الرحيم

شعر الفكاهة في ديوان المتنبي نادر جداً ، وليس ذلك لأن أبا الطيب لا يحتاج إلى الترويح من النفس ، أو أنه لا يدرك مفارقات الحياة ، أو لا يحسن التعبير عنها ، بل لأنه ألزم نفسه أسلوباً جدياً صارماً فقضى عمره في كفاح عنيف متواصل يريد أن ينال لنفسه ما رسم لها من المناصب يأخذه غلاباً ويخوض له المهالك إن استطاع ، قال لبعض الكلابيين وهم على شراب :

لأحبتي أن يملأوا بالصافيات الأكؤبا
وعليهم أن يبذلوا وعلي الا اشربا
حتى تكون البائرا ت السمهات فأطربا

وقال في رثاء جدته :

يقولون لي ما انت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما ابتغي جل أن يسمى

أما منية المتنبي — كما كشف عنها في شعره — فهي ولاية يرأس بها الناس فتشبع نهمه للزعامة ، وقد ضن بها عليه الزمان وقتل قبل أن يبلغها .

فالفتى الذي أغرى الناس بالثورة منذ صغره وصمد — منفرداً — لدرس الكاشحين وخصوماتهم في بلاط سيف الدولة يعز على نفسه الطموح أن تنصرف — إلا نادراً — إلى اللهو والفكاهة قبل أن يحقق مأربه الفخمة . فهو فتى قل أن تجد بين الفتيان من له استكباره لنفسه وصلابة همته واحترامه لذاته

فهو شديد الميل إلى الجد ، يريد أن يكون ممدوحه متزناً وقوراً مهيباً؛ فقد ورد في ترجمة أبي القاسم عبدالله بن عبد الرحمن الاصفهاني للمتنبي أنه صده عن مدح الوزير المهلبي (ما سمعه من تمادبه في السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه ، وكان المتنبي مر النفس ، صعب الشكيمة ، حاداً مجداً (١)

وهو إذا ضحك فلا يريد أن يحمل ضحكه على فراغ القلب بل هو كتكشيرة الليث بداية شر وفتك

وجاهل غره في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة وفم
اذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث يبتسم

ومع كل هذا فلا يخلو ديوانه من شعر الفكاهة فقد قال وقد تاب بدر بن عمار من الشراب مرات عديدة ثم رجع اليه فرآه أبو الطيب يشرب فأنشد ارتجالا :

يا أيها الملك الذي ندماؤه شركاؤه في ملكه لا ملكه
في كل يوم بيننا دم كرمة لك توبة من توبة من سفكه

والصدق من شيم الكرام فتبنا امن الشراب تتوب أم من تركه

هذه الكياسة من الصفات التي حببته إلى نفوس الأمراء والملوك فقد مزج الدعابة بالمديح المتين : أصدقاء الأمير شركاء في ما يملك من ثروة يأخذون ما يريدون بلا منة ولا استحياء ، وهذه من سمات الكرم الأصيل . ثم ما أبرع أبا الطيب في قوله (لك توبة من توبة) فالمعنى الأصلي أنه نكص ومنعفت عزيمته فارتد عن توبته ولكن براعة المتنبي تأبى أن تقول هذا المعنى بهذا اللفظ القارص فتحايلت لابرازه بعودة أخرى؛ فالأمير لا يزال مستمرا في توبته ولكنه تائب عن التوبة . هذه المغالطة الفكهة حببية إلى كثير من النفوس ، ثم وسع له الفرصة ورفع عنه الحرج اذ مهد له الجواب في سؤاله : (أمن الشراب تتوب أم من تركه ؟) فمن اليسير المقبول أنه يقول الأمير : (بل من تركه)

ومن شعر الفكاهة قوله من قصيدة طويلة قالها عند ما أنقذ سيف الدولة أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان من أسر الخارجي:

ولو كنت في أسر غير الهوى ضمنت ضمان أبي وائل
فدى بنفسه بضمان النضار وأعطى صدور القنا الذابل
ومناهم الخيل مجنوبة فغن بكل فتى باسل

طرافة يصورها المتنبي لهذا الأسير ، فهو يضمن النضار لأعدائه ولكنه يعطي صدور القنا عوضه ، فياله من تعويض طريف . وعنهم الخيل يعودون بها غنيمة فجاءت الخيل — كما وعد — ولكنها تحمل الموت الزؤام بسنان (كل فتى باسل) .

ان المتنبي يجوز في شرعته أن يمكر الانسان بعدوه ويخلف وعده ولكنه يأبى هذا في الحب

١ شرح ديوان المتنبي للمرحوم البرقوقي ج ١ ص ب ب طبعة ٣٨

وهو ينحدر إلى السخرية الجارحة مخاطباً أعداء أبي وائل في قوله : —

خذوا ما أتاكم به واعذروا فان الغنيمة في العاجل
وان كان أعجبكم عاجكم فعودوا إلى حمص من قابل

فهو يزعم — ساخراً — ان ما نالوا من قتل وتدمير على يد سيف الدولة فذلك « إحسان » ومن شيم المحسنين أن يعتذروا عن قلة احسانهم ولو كان جسيما . فخذوا ما تيسر واعذروا . وإذا ارتضيتم صنيعنا هذا فهلموا الينا في العام المقبل إلى مثل ما غنمتم في هزيمتكم المنكرة .

وأنشد المتنبي أبا بكر الطائي فنام والمتنبي ينشد فقال : —

ان الفوافي لم تنمك وإنما عمقتك حتى صرت مالايوجد
وكأن أذنك فوك حين سمعتها وكأنها مما سكرت المرقد

ان البيت الثاني دعابة واعتذار إذ ألقى تبعة النوم على الشعر فقد حسبه كالأفيون الذي يجلب النوم ، أما البيت الأول وفيه « إن الفوافي عمقتك » فهو وخزة عميقة أملتها نفس المتنبي الثائرة وقد جمع المتنبي بين الهجوم والاعتذار في بيتين متتابعين .

ومن الفكاهة الجيدة قوله

بلغت بسيف الدولة النور رتبة ارت بها ما بين غرب ومشرق
إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق

صورة بديعة مضحكة حالة هذا الأحمق يبيت له سيف الدولة المكر فيحته على اللحاق بالمتنبي وهو منطلق لا ترى إلا عجاجته ليكشف ضعف هذا العاجز فيضحك من تقصيره ، صـــورة حسنة منظورة في منافسات الفرسان استعارها أبو الطيب لمباراة الشعراء فبلغ الغاية .

ومن الهكم والسخرية قوله وقد قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها « كوكتين » وجعل في رجله وعنقه خشبتين من خشب الصفصاف .

قال : —

زعم المقيم « بكوتكين » بأنه من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبته مذ صرت من أبنائهم صارت قيودهم من الصفصاف

وقد ذكر هذين البيتين المرحوم البرقوقي في المستدرك من شعر المتنبي في آخر الجزء الثاني من طبعة سنة ١٩٣٠ فاذا صحت هذه الرواية فربما قالها بعد أن نجا من قيد هذا الهاشمي المتهم بنصبه على رأي المتنبي ولا يعقل أنه قالها وهو في قبضة الأسر فيضاعف من نكاله وآلامه .

وقال في صباه وقد رأى جرذاً مقتولاً : —

لقد أصبح الجرذ المستنير أسير المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامري وتلاه للوجه فعل العرب
كلا رجليه إنلا قتله فأيكما غل حر السلب
وأيكما كان من خلفه فان به عضة في الذنب

في وصف معركة الجرذ لفتات تدل على براعة التصوير ودقة التعبير ؛ فالجرذ مستنير أغار على العامري والكناني فخاب في حملته لأن بأس خصميه فوق ما قدر وقد تظاهرا عليه فقتلاه ، وتلاه للوجه كصنيع العرب في الوغى ، ولكن من منهما اقتدى بشاعر الفرسان عنترة العبسي ذاك الذي (يغشى الوغى ويعف عند المغنم) فتنازل لصاحبه عن حصته في السلب فقد انفرد بغنيمته شخص واحد .

ووصف المتنبي السلب بأنه (حر) لا عار على آخذه فهو من أسلاب الحرب يأخذه الغالب بكامل عزته وكبريائه ، ثم يتساءل المتنبي عن الذنب الذي فتك به بغتة فعضه من الذنب فلعل هذا أحذق بفن الحرب وأدخل في باب الشهامة الحربية لأنه لم يستعمل من السلاح خيراً مما ملك خصمه .

هـــذا المتنبي من شعراء القوة والدم في العالم قطبت الأحداث جبينه وألهبت نظراته الخصومات فلا يبتسم إلا لماما . وأحسب لو أنه نال بغيته لأنبسطت أساريره واولى شعر الفكاهة أكثر من هذه العناية ، والفن القوي يخلد مع كل غرض .

الحلة العراق — أحمد حسن الزيات
ليسانس بالأدب العربي

اعـــلان وتحذير

تعلن الست فاطمة عبد العزيز محمد نور من الطويله مركز طلخا غربية بأن ختمها كان محفوظا طرف أخيها خالد افندي عبد العزيز نور من مدة وقد تصرف بدون أذنها في تحرير عقد إيجار بأطيانها الحالي افندي حسن غازي من ديسط لمدة ثلاث سنوات بإيجار بخس وهي تخشى أن يكون قد استعمل ختمها في تصرفات أخرى وهي ليست مدينة لأحد ولو ظهرت أي أوراق بهذا الختم تكون لاغية ويعاقب حاملها وستجدد بدله باسم فاطمة عبد العزيز نور